وجاء بأمر الحفاظ على الصلاة بين المشكلات الأسرية ، وذلك ليجعل الدين لبنة واحدة ، وأيضاً لأن النفس المشحونة بالبغضاء وزحام أمور الزواج والوصيّة والطلاق ؛ هذه النفس عندما تقوم إلى الصلاة لله فهى تهدأ . ولنا فى رسول الله صلىّ الله عليه وسلم أسوة حسنة . فقد كان إذا حَزَبَه أمرٌ واشتد عليه قام إلى الصلاة .

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يأتى بأمور الدين كأبواب منفصلة ، باب للصلاة ، وآخر للصوم ، وثالث للزكاة ، لا . بل يمزج كل ذلك فى عجينة واحدة . ولذلك فعندما أنزل بالمفسدين المحاربين لله عقاب التقتيل والتصليب والتقطيع والنفى . كان ذلك لتربية مهابة الرُّعب فى النفس البشرية . وساعة يستيقظ الرُّعب فى النفس البشرية يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

لقد أخرجنا من جَوٍّ صارمٍ وحديث فى عقوباتٍ إلى تقوى الله . والتقوى ـ كما نعرف ـ أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يؤذيه وقاية .

وعرفنا أن الحق سبحانه الذى يقول « اتقوا الله » هو بعينه الذى يقول « اتقوا النار » ، وعرفنا كيف نفهم تقوى الله . بأن نجعل بيننا وبين الله وقاية . وإن قال قائل :

إن الحق سبحانه يطلب منا أن نلتحم بمنهجه وأن نكون دائماً فى معيَّته . فلنجعل الوقاية بيننا وبين عقابه . ومن عقابه النار .

إذن فقوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله » أى أن نتقى صفات الجلال ،

والنار من خلق الله وجنده . وقوله سبحانه : « وابتغوا إليه الوسيلة » أى نبحث عن الوُصْلة التى تُوصّلنا إلى طاعته ورضوانه وإلى محبّته . وهل هناك وسيلة إلا ما شرَّعه الله سبحانه وتعالى ؟ وهل يتقرَّب إنسان إلى أى كائن إلا بما يعلم أنه يُحبّه ؟ .

وعلى المستوى البشرى نحن نجد من يتساءل : ماذا يُحب فلان ؟ . فيقال له : فلان يُحب ربطات العُنق ؛ فيُهديه عدداً من ربطات العُنق . ويقال أيضاً : فلان يحب المسبحة الجيدة ، فيحضر له مسبحة رائعة . إذن كل إنسان يتقرّب إلى أى كائن بما يُحب ، فما بالنا بالتقرب إلى الله ؟ . وما يُحبه سبحانه أوضحه لنا فى حديثه القدسى :

(من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إلىَّ عبدى بشىء أحبّ إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه)[1] .

فالحق سبحانه وتعالى يفسح الطريق أمام العبد ، فيقول سبحانه فى الحديث القدسى :

(ما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل) .

أى أن العبد يتقرب إلى الله بالأمور التى لم يلزمه الحق بها ولكنها من جنس ما افترضه سبحانه ، فلا ابتكار فى العبادات . إذن فابتغاء الوسيلة من الله هى طاعته والقيام على المنهج فى « افعل » و« لا تفعل » .

والوسيلة عندنا أيضاً هى منزلة من منازل الجنة . والرسول صلّى الله عليه وسلم طلب منا أن نسأل الله له الوسيلة فقال :

(إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا علىّ فإنه من صلّى علىَّ صلاة

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق ، ورواه ابن ماجه فى الفتن .

صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبدٍ من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل الله لى الوسيلة حلّت له الشّفاعة)[1] .

ولا نريد أن ندخل هنا فى مجال التوسل بالنبى أو الأولياء ؛ لأنها مسألة لا يصح أن تكون مثار خلاف من أحد . فبعضهم يحكم بكفر هؤلاء .

ونقول لمن يكفر المتوسلين بالنبى أو الولى : هذّبوا هذا القول قليلاً ؛ إنّ حدوث مثل هذا القول هو نتيجة عدم الفهم ، فالذى يتوسل إلى الله بالنبى أو الولى هو يعتقد أن له منزلة عند الله . وهل يعتقد أحد أن الولىّ يجامله ليعطيه ما ليس له عند الله ؟. طبعا لا . وهناك من قال : إن الوسيلة بالأحياء مُمكنة ، وأن الوسيلة بالأموات ممنوعة . ونقول له : أنت تضيق أمراً مُتسعاً ؛ لأن حياة الحى لا مدخل لها بالتوسل ، فإن جاء التوسل بحضرته صلّى الله عليه وسلم إلى الله ، فإنك قد جعلت التوسل بحبك لمن علمت أنه أقرب منك إلى الله ؛ فحُبك له هو الذى يشفع . وإياك أن تظن أنه سيأتى لك بما لا تستحق .

والجماعة التى تقول : لا يصح أن نتوسل بالنبى ؛ لأن النبى انتقل إلى الرفيق الأعلى ، نقول لهم : انتظروا قليلاً وانتبهوا إلى ما قال سيدنا عُمر ـ رضوان الله عليه ـ ؛ قال : كنا فى عهد رسول الله إذا امتنع المطر نتوسل برسول الله ونستسقى به . ولما انتقل رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، توسل بعمه العباس . وقالوا : لو كان التوسل برسول الله جائزاً بعد انتقاله لما عدل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عن التوسل بالنبى بعد انتقاله ، وذهب إلى التوسل بعم النبى . ونسأل : أقال عمر « كنا نتوسّل بنبيك والآن نتوسّل إليك بالعباس؟ أم قال: والآن نتوسل إليك بعم نبيك » ؟ .

ولذلك فالذين يمنعون ذلك يوسعون الشقة على أنفسهم ؛ لأن التوسُّل لا يكون بالنبى فقط ولكن التوسل أيضاً بمن يمت بصلة إلى النبى صلّى الله عليه وسلم . فساعة يتوسل واحد إلى غيره يعنى أنه يعتقد أن الذى توسل به لا يقدر على شىء، إننى أتوسل به إلى الغير لأنى أعرف أنه لا يستطيع أن ينفذ لى مطلوبى . إذن فلنبعد

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

مسألة الشرك بالله عن هذا المجال ، ونقول : نحن نتوسل به إلى غيره لأننا نعلم أن المتوسل إليه هو القادر وأن المتوسل به عاجز . وهذا هو منتهى اليقين ومنتهى الإيمان .

ولكن المتوسَّل به قد ينتفع وقد لا ينتفع ، وعندما توسَّل سيدنا عمر بالعباس عَمّ النبى كان يفعل ذلك من أجل المطر . والمطر فى هذه الحالة لا ينتفع به رسول الله لذلك جاء بواحدٍ من آل البيت وكأنه قال : « يا ربِّ عمُّ نبيك عطشان فمن أجله نريد المطر » .

إذن فتوسُّل عمر بن الخطاب بعم النبى دليل ضد الذين يمنعون التوسل بالنبى بعد الانتقال إلى الرفيق الأعلى . وحتى نخرج من الخلاف . نقول : إن العمل الصالح المتمثل فى « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » هو الوسيلة الخالصة . وبذلك نخلص من الخلاف ولا ندخل فى متاهات .

« ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون » ولنر الإيثار الإيمانى الذى يريد الحق أن يُربّيه فى النفس المؤمنة بتقوى الله التى تتمثل فى الابتعاد عن محارِمه ، وابتغاء الوسيلة إلى الله فى اتباع أوامرِه .

إن الدِّين لم يأتِك من أجل نفسك فحسب ، ولكن إيمانك لن يصبح كاملاً إلا أن تُحب لأخيك ما تحبه لنفسك ، فإن كنت قد أحببت لنفسك أن تكون على المنهج فاحرص جيداً على أن يكون ذلك لإخوانك أيضاً . وإخوانك المؤمنون ليسوا هم فقط الذين يعيشون معك ، ولكن هم المقدر لهم أن يوجدوا من بعد ذلك . ولذلك عليك أن تجاهد فى سبيل الله لتعلو كلمة الله . وهكذا تتّسع الهِمَّةُ الإيمانية ، فلا تنحصر فى النفس أو المعاصرين للإنسان المؤمن . ولذلك يضع لنا الحق الطريق المستقيم ويوضحه ويبيّنه لنا .

وكانت بداية الطريق أن المؤمن بالله حينما وثق بأن لله نعيماً وجزاءً فى الآخرة هو خير مما يعيشه قدَّم دمه واستشهد ؛ لذلك قال صحابى جليل : أليس بينى وبين الجنة إلا أن أدخل هذه المعركة فإما أن أقتلهم وإما أن يقتلونى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

وألقى الصحابى تمرات كان يأكلها ودخل المعركة .

لا بد إذن أنه قد عرف أن الحياة التى تنتظره خير من الحياة التى يعيشها ؛ ومع ذلك لم يضع الله الجهاد كوسيلة فى أول الأمر ، بل ظل يأمرهم بالانتظار والصبر حتى يُرَبِّىَ من يحملون الدعوة . فلن يجعلها سبحانه عملية انتحارية .

وبعد ذلك نرى أثناء رحلة الدعوة للإسلام أن صحابياً يحزن لأنه فى أثناء القتال قد أفلت منه عَمرو بن العاص ، وأن خالد بن الوليد قد هرب . وتثبت الأيام أن البشر لا يعرفون أن علم الله قد ادّخر خالداً وأنجاه من سيف ذلك الصحابى من أجل أن ينصر الإسلام بخالد . وكذلك عَمرو بن العاص قد ادُّخره الله إلى نصرٍ آخر للإسلام .

إذن فالجهاد فى سبيل الله ضمانٌ للمؤمن أن يظل المنهج الذى آمن به موصولاً إلى أن تقوم الساعة ، وذلك لا يتأتّى إلا بإشاعة المنهج فى العالم كله . والنفس المؤمنة إذا وقفت نفسها على أن تجاهد فى سبيل الله كان عندها شىء من الإيثار الإيمانى . وتعرف أنها أخذت خير الإيمان وتُحب أن توصّله إلى غيرها ، ولا تقبل أن تأخذ خير الإيمان وتحرِم منه المعاصرين لها فى غير ديار الإسلام ، وتحرص على أن يكون العالم كله مؤمناً ، وإذا نظرنا إلى هذه المسألة نجدها تمثل الفهم العميق لمعنى الحياة ، فالناس إذا كانوا أخياراً استفاد الإنسان من خيرهم كله ، وإذا كانوا أشراراً يناله من شرِّهم شىء .

إذن فمن مصلحة الخيِّر أن يشيع خيره فى الناس ؛ لأنه إن أشاع خيره فهو يتوقع أن ينتفع بجدوى هذا الخير وأن يعود عليه خيره ؛ لأن الناس تأمن جانب الرجل الطيب ولا ينالهم منه شر . لأنه يجب أن يكون كل الناس طيبين وعلى ميزان الإيمان ؛ لأنهم إن كانوا على ميزان الإيمان فالطيب يستفيد من خيرهم . أما إن بقى الناس على شرِّهم ويبقى الإنسان الطيب على خيره ، فسيظل خير الطيب مبذولاً لهم ويظل شرُّهم مبذولاً للطيب .

إذن من حكمة الإيمان أن « يعدّى » الإنسان الخير للغير . وإن دعوة المؤمن إلى سبيل الله ، ومن أجل انتشار منهج الله لا بد من الإعداد لذلك قبل اللقاء فى

ساحات المعارك ؛ فقبل اللقاء مع الخصم فى ساحة المعركة لا بد من حُسْنِ الإعداد . وعندما يعدّ المؤمن نفسه يجد أن حركة الحياة كلها تكون معه ؛ لأن الدعوة إلى الله تقتضى سُلوكاً طيباً ، والسُلوك الطيب ينتشر بين البشر ، وهنا يقوى معسكر الإيمان ، فيرتقى سلوكاً وعملاً ، وعندما يقوى معسكر الإيمان يمكنه أن يستخرج كنوز الأرض ويحمى أرض الإيمان بالتقدم الصناعى والعلمى والعسكرى . والحق يقول :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

سبحانه أنزل القرآن وأنزل الحديد ، ويتبع ذلك :

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

وجاء معنى البأس من أجل ذلك ، وهذا هو السبب الثانى الذى أوصانا به الحق :

إياكم أن تأخذوا منهج الله فقط الذى ينحصر فى « افعل ولا تفعل » ولكن خذوا منهج الله بما يحمى منهج الله وهو التقدم العلمى باستخراج كنوز الأرض وتصنيعها كالحديد مثلاً ، فسبحانه كما أنزل القرآن يحمل المنهج ، فقد أنزل الحديد وعلى الإنسان مهمة استنباط الحديد والمواد الخام التى تَسَهّل لنا صناعة الأجهزة العلمية ونقيم المصانع التى تنتج لنا من الحديد فولاذاً ، ونحوّل الفولاذ إلى دروع ، ونصنع أدق الأجهزة التى تهيىء للمقاتل فُرصة النصر . وكذلك نَدّخر المواد الغذائية لتكفى فى أيام الحرب .

إذن حركة الحياة كلها جهاد ، وإياك أن تقصر فكرة الجهاد عندك على ساحة المعركة ، ولكن أعدّ نفسك للمعركة ؛ لأنك إن أعددت نفسك جيّداً وعلم خصمك أنك أعددت له ، ربما امتنع عن أن يحاربك . والذى يمنع العالم الآن من معركة ساخنة تدمره هو الخوف من قِبَل الكتل المتوازنة لأن كل دولة تُعدّ نفسها للحرب . ولو أن قوة واحدة فى الكون لهدمت الدنيا .

وقول الحق : « وجاهدوا فى سبيله » نأخذه على أنه جهاد فى سبيل منهج الله ؛

وندرس هذا المنهج ونفهمه وبعد ذلك نجاهد فيه باللسان وبالسِّنان ، ونجاهد فيه بالكتاب ونجاهد فيه بالكتيبة .

إذن فقوله الحق : « وجاهدوا فى سبيله » يصنع أمة إيمانية مُتحضرة ، حتى لا تترك الفرصة للكافر بالله ليأخذ أسباب الله وأسراره فى الكون . فمن يعبد الإله الواحد أولى بسرّ الله فى الوجود ، ولو فرضنا أنه لن تقوم حرب ، لكننا نملك المصانع التى تنتج ، وعندنا الزراعة التى تكفى حاجات الناس ، عندئذ سنحقق الكفاية . وما لا تستعمله فى الحرب سيعود على السلام . ويجب أن تفهموا أن كل اختراعات الحياة التقدمية تنشأ أولاً لقصد الحرب . وبعد ذلك تهدأ النفوس وتأخذ البشرية هذه الإنجازات لصالح السلام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ
ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

الحق سبحانه تحدث من قبل عن العقوبات والقصاص والتقتيل والتقطيع ، ثم ينقلنا من هذا الجو إلى أن نتقى الله ونبتغى إليه الوسيلة ونجاهد فى سبيله حتى نفلح ، وكان لا بد أن يأتى لنا الحق بالمقابل ، فالعقاب الذى جاء من قبل كقصاص وقتل هو عقاب دنيوى . ولكن ما سيأتى فى الآخرة أدهى وأمرّ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنا أن نتصور الجماعة الكافرة التى تتكبر فى الدنيا ويعتلون ويرتفعون بالجبروت ،

فماذا عن موقفهم يوم القيامة ؟. لقد أقمتم الجبروت بقوّتكم على غيركم ، وها هى ذى القُوّة تضيع وتفلت . لقد كانت القوة تعيش معكم فى الدنيا بالأسباب الممنوحة من الله لكم . ولم تَضِنّ عليكم سُنَنُ الله أن ترتقوا ، وسبحانه قد خلق السُّنَن ومن يبحث فى أسباب الله ، ينلْ نتيجة ما بذل من جهد ، لكن ها هوذا يوم القيامة ، وها أنتم أولاء تعرفون أن الأسباب ليست ذاتية . وأن قوّتكم لم تكن إلا عطاءً من الله . ها أنتم أولاء أمام المشهد الحيّ ، فلو أن ما فى الدنيا جميعاً معكم وحتى ولو كان ضعف ما فى الدنيا وتريدون أن تقدّموه فِدْيةً لكم من عذاب جهنم فالله لا يتقبله ، وتلك قِمّة الخِزْى ، ولن يستطيعوا تخليص أنفسهم من عذاب جهنم .

وهذا المشهد يجعل النفس تستشعر أن المسألة ليست لعباً ولا هزلاً ، ولكن هى جِدّ فى منتهى الجِدّ . وعلى الإنسان أن يقدّر العقوبة قبل أن يستلذّ بالجريمة . والذى يجعل الناس تستشرى فى الإسراف على أنفسهم ، أن الواحد منهم يعزل الجريمة عن عقوبة الجريمة . ولو قارن الإنسان قبل أن يسرف على نفسه العقوبة بالجريمة لما ارتكبها . وكذلك الذى يكسل عن الطاعة ؛ لو يقارن الطاعة بجزائها لأسرع إليها .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نفترض أن إنساناً فى صحراء نظر إلى أعلى الجبل ورأى شجرة تفاح ، واستَدَلّ على التفاح بأن رأى تُفاحة عَطبة واقعة على الأرض ، وقال الرجل لنفسه : هأنذا أرى مصارع الناس ؛ فهذا يصعد إلى الجبل فيقع من على حافته . وذلك تهاجمه الذئاب . وثالث يتوه عن الطريق . كل ذلك على أمل أن فى الشجرة ثماراً . ولا بد لى من أن أختار الطريق السليم إلى الثمار . والطريق إلى ثمار الدنيا الطاعة لمنهج الله ، وهو الطريق إلى ثمار الآخرة .

وأيضاً : الطالب المجتهد الذى يتغلب على النعاس ويتوضأ ويُصلّى ويخرج إلى مدرسته فى برد الشتاء ليحصل الدروس . ويعود إلى المنزل لتقدّم له أمه الطعام ، ولكنه مشغول بالدرس . إن هذا الشاب يستحضر نتيجة هذا الجهد ؛ لذلك فكل تعب فى سبيل التعلّم صار سهلاً عليه ، ولو أهمل ونام ولم يقم مبكراً إلى المدرسة ، وإن استيقظ وخرج من المنزل ليتسكع فى الطرقات مع أمثاله ؛ يكون فى مثل هذه الحالة غير مُقدّر للنتيجة التى تقوده إليها الصُّعْلَكة . والعيب فى البشر أنهم يعزلون

العمل عن نتيجته ، ويفصلون بين الجريمة وعقوبتها ، والطاعة عن ثوابها . إنّنا لو وضعنا النتيجة مقابل العمل لما ارتكب أحد معصية ولا أهمل أحد فى طاعة .

ولنا أن نتصور مشهد الجبارين فى الدنيا وهم فى نار الآخرة ، هم بطشوا فى الدنيا ونهبوا، ولنفترض أن الواحد منهم قد امتلك كل ما فى الدنيا ـ على الرغم من أنّ هذا مستحيل ـ وفوق ذلك أخذ مثل ما فى الدنيا معه ويريد أن يقدمه افتداء لنفسه من عذاب جهنم فيرفضه الحق منه « ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم » وتلك هى قمة الخزى التى يجب أن يبتعد عنها الإنسان .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

وكلما مَسَّهم لفحُ النار يريدون أن يخرجوا منها ، لكن كيف تأتى لهم إرادة الخروج من النار . لا بد ـ إذن ـ أن لحظة لفحها عليهم وتقلبهم هنا وهناك تدفعهم ألسنة اللهب إلى القرب من الخارج فيظنون أن العذاب قد انتهى . ألم يقل الحق سبحانه من أجل أن يضع أمامنا التجسيد الكامل لبشاعة الجحيم :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

هذا القول يُوحى أولاً بأن رحمةً ما ستصل إليهم ، ولكن ما يأتى بعد هذا القول يرسم الهول الكامل ويجسده :

﴿ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذه قمة الهول . وهناك فرق بين الابتداء المُطمع والانتهاء المُوئِس .

مثال ذلك السجين العطشان الذى يطلب كوب ماء . ويستطيع السجّان أن يقول له : لا . ليس هناك ماء . أما إذا أراد السجان تعذيبه بأكثر من ذلك فهو يقول له : سآتى لك بالماء ويحضر له كوباً من ماء زلال ، ويمد السجين يده لكوب الماء ، لكن السجان يسكب كوب الماء أرضاً . هذا هو الابتداء المُطمع والانتهاء المُوئس . وكذلك رغبتهم فى الخروج من النار ؛ فلا إرادة لهم فى الخروج إلا إذا كانت هناك مظنة أن يخرجوا نتيجة تقليب ألسنة اللهب لهم ، ولذلك يقول الحق أيضاً عن هؤلاء :

﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

وتثير البُشرى فى النفس الأمل فى العفو ، فيفرحون ولكن تكون النتيجة هى :

﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

وهكذا يريد لهم الحق صدمة الألم الموئس بعد الرجاء المطمع .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وبعد ذلك ينقلنا الحق إلى قوله سبحانه :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

جاء الحق من قبل بعقاب قطاع الطريق والمفسدين فى الأرض ، وهنا يأتى بقضية أخرى يريد أن يصون بها ثمرة حركة المؤمن فى مجتمعه ؛ لأن الإيمان يحب من المؤمن أن يتحرك ، وحتى يتحرك الإنسان لا بد أن يضمن الإنسان ثمرة حركته . أما إن تحرك الإنسان وجاءت الثمرة ثم جاء من يأخذها فلا بد أن يزهد المتحرك فى

الحركة ، وحين يزهد الإنسان فى الحركة يتوقف تقدم الوجود ؛ لذلك من حظنا أن تستمر حركة الحياة ، ولا تستمر حركة الحياة إلا إذا أمن الإنسان على حركته ، وأن تكون حركته فيما شرع الله .

وحين يتحرك الإنسان فيما شرع الله ويكسب من حلال ؛ فليس لأحد دخل ؛ لأن حركة هذا الإنسان تفيد المجتمع سواء أكان ذلك فى باله أم لم يكن .

وقلنا من قبل : إن الرجل الذى يملك مالاً يكتنزه يجد الحق يأمره بأن يستثمر هذا المال ؛ لأنه سبحانه أمر بفتح أبواب الخير لمن يجد المال ، فيدفع بخاطر بناء عمارة شاهقة فى قلب صاحب المال ، فيقول الرجل لنفسه : إن المال عندى مكتنز فلأبنى لنفسى عمارة ، ويزين له الحق هذا الأمر . ويفكر الرجل فى أن يبنى عمارة من عشرة طوابق وفى كل طابق أربع شقق ، وليكن إيجار كل شقة مائة جنيه . وهو حصيلة شهرية لا بأس بها .

لقد حسب الرجل المسألة وهو لا يدرى أن الله سبحانه وتعالى يقذف فى باله الخواطر ، فيُسرع ليشترى قطعة الأرض . وبعد ذلك يأتى بمن يُصمّم بنيان العمارة ومن يقوم بالبناء ، وتخرج النقود المكتنزة . وهكذا نرى أن الثرى قبل أن ينتفع بعمارته كان غيره قد انتفع بماله حتى أكثر طبقات المجتمع فقرا . ويحدث كل ذلك بمجرد الخاطر . ولكل إنسان خواطره ، فالبخيل له من يسرف فى ماله ، والكريم له من يكتنز من ماله . وإياك أن تظن أن هناك حركة فى الوجود خارجة عن إرادة الله . فالحق يقول :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة آل عمران)

وهم يفعلون ذلك لأن الذنوب تطاردهم ، فيعوضون ذلك بإصلاح أعمالهم . ولذلك نجد أن الخير إنما يأتى من المسرفين على أنفسهم فيريدون إصلاح أمورهم وليس هناك من يستطيع أن يأخذ شيئاً من وراء الله .

﴿ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

كأن الحق سبحانه وتعالى بمجرد الخواطر يدفع الناس إلى ما يريد . نعم . فهو غيب قيّوم ؛ ولذلك يكون تدبيره فى الكون غيباً . وفى قرانا يخصّصون يوماً للسّوق ونرى ساحته فى اليوم المُخصص ونتأملها فنتعجب من إبداع مُحرّك الكون ؛ ففى الصباح يسير رجال إلى السوق ومعهم عصيّهم ولا يحملون شيئاً . وهؤلاء ذاهبون لشراء ما يحتاجون إليه ، وآخرون يسوقون أمامهم العجول أو الحمير ، وهؤلاء يذهبون لبيع بضائعهم . ونرى نساء تحمل كل واحدة منهن صنفاً من الخضار فنعرف أنهن يذهبن للبيع فى السوق . ونرى أخريات يحملن سِلالاً فارغة ، ونعرف أن كلاً منهن ذاهبة للشراء . وفى آخر النهار نرى المسألة معكوسة ، من كان يحمل فى الصباح شيئاً حمله غيره ، فمن الذى هيّج الخواطر ليذهب من يرغب فى البيع إلى السوق ليبيع ؟

من الذى حرّك الشارى للشراء ؟ هو الحق سبحانه يحقق للرّاغب فى البيع أن يوجد المشترى ، ويحقق للراغب فى الشراء أن يوجد البائع . إنه ترتيب الحىّ القيّوم . ونسمع من يقول : لقد أنزلنا فى السوق اليوم عشرين طناً من الطماطم وأربعين طناً من الكوسة . وغيرها من الأطنان . ونجد آخر النهار أن كل شىء قد بيع . إنها خواطر الله المتوازنة فى الناس والتى توازن المجتمع .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة المُتحرّك . ويُريد أيضاً ألاّ يقتات الإنسان أو يتمتّع بغير مجهود ؛ لأن من يسرق إنما يأخذ مجهود غيره . وهذا الفعل يُزهّدُ الغير فى العمل .

إن فى الإسلام قاعدة هى : عندما تكثر البطالة يقال لك لا تتصدق على الناس بنقود من ملكك ، ولكن افتح أى مشروع ولو لم تكن فى حاجة إليه كأن تحفر بئراً وتردمها بعد ذلك وأعط الأجير أجره حتى لا يتعوّد الإنسان على الكسل ، بل يجب تعويده على العمل ، ومن لا يقدر على العمل فلا بد له من ضمان . فضمان الإنسان لقوته يكون من عمله أولاً ، فإن لم يكن قادراً على العمل ، فضمانه من أسرته وقرابته ، فإن لم توجد له أسرة أو قرابة ، فأهل محلّته مسئولون عنه ، وإن لم يستطع أهل القرية أو المحلّة أن يوفّروا له ذلك ، فبيت المال عليه أن يتكفّل بالفقراء .

إذن فالأرضية الإيمانية تَحُثُّنا على أن نضمن للإنسان العمل ، أو نعوله ونقوم بما

يحتاج إليه إن كان عاجزاً . ولكن الآفة أن بعضاً من الناس يحبُّون عملاً بذاته ، فهذا يرغب فى التوظُّف فى وظيفة لا عمل فيها ، ونقول له :

فى العالم المعاصر أزمة عمالة زائدة فتعلّم أى مهارة ؛ فما ضنت الحياة أبداً على طالب قوت من عمل .

ولنا فى رسول الله صلّى الله عليه وسلم الأُسْوَة حين أقام أول مزادٍ فى الإسلام . عندما جاء له رجلٌ من الأنصار يسأله ، فقال له :

(أما فى بيتك شىء . قال الرجل : بلى ، حِلْسٌ نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقَعْبٌ - أى قدح - نشرب فيه من الماء . قال : إيتنى بهما . فأتاه بهما . فأخذهما رسول الله صلّى الله عليه وسلم بيده وقال : من يشترى هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم . قال : من يزيد على درهم ؟ - مرتين أو ثلاثاً - قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين . فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين وأعطاهما للأنصارى وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه - أى أَلْقِهِ - إلى أهلك ، واشتر بالآخر قَدُوماً فائتنى به)[١] .

إذن أشار النبى صلّى الله عليه وسلم على الرجل وأمره بأن يحضر الحِلْس الذى ينام عليه والقدح الذى يشرب فيه ، حتى يعرف الرجل أنه تَاجَر فى شىء يملكه ، لا فى عطاء من أحد . وجاء الرجل إلى حضرة النبى عليه الصلاة والسلام ووجد أن النبى قد سوّى له يداً للقدوم وقال للرجل :

(اذهب فاحتطب وبعْ ، ولا أرينَّك خمسة عشر يوماً)[٢] .

وذهب الرجل يحتطب ويبيع امتثالاً لأمر النبى صلّى الله عليه وسلم وجاء بعد خمسة عشر يوماً وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً .

فقال النبى صلّى الله عليه وسلم :

(هذا خير لك من أن تجىء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة)[٣] .

---

(١) رواه أبو داود فى الزكاة ، وابن ماجه فى التجارات ورواه أحمد .

(٢) ، (٣) رواه أحمد وأبو داود فى الزكاة وابن ماجه فى التجارات .

هذه هى التربية .

إذن فالغرض الأساسى أن يحمى الإسلام أفراد المجتمع ، فالذى لا يجد قُوتَه نساعده بالرأى وبالعلم والقدرة والقوة . والخير أن نعلّمهم أن يعملوا لأنفسهم . ولذلك جاء الحق لنا بقصة ذى القرنين المليئة بالعِبر :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أنه لا توجد صلة للتفاهم . ولكنهم قالوا :

﴿ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وها هو ذو القرنين يعلن أنه فى غير حاجة إليهم ، ولكن يكلفهم بعمل حتى يحقق لهم مُرادهم :

﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومن العجيب أن القرآن عندما يحكى أمراً فهو لا يحكيه إلا لهدف ، هم طلبوا من ذى القرنين أن يبنى سدّاً ، لكنه اقترح أن يجعل لهم رَدماً ، ما الفرق ؟ لقد تبين من العلم الحديث أن السّدّ قد تحدث له هزّة من أى جانب فينهدم كله ، أما الرّدْم فإن حدثت له هزّة يزددْ تماسكاً . ولم يعمل ذو القرنين لهم ، ولكن علّمهم كيف يصنعون الرّدْم ، وذلك حتى لا يعيشوا مع الإحساس بالعجز . وهكذا يُعلمنا القرآن أن الإنسان لا بد له من عمل . لكن ماذا إن سَرَق ؟.

أولاً ما هى السَّرقة ؟ إنها أخذُ مالٍ مقوّم خفية . فإن لم يكن الأخذ خفية فهو اغتصاب ، ومرة أخرى يكون خطفاً ، ومرة رابعة يكون اختلاساً .

فالأَخْذُ له أنواع مُتعددة ؛ فالتاجر الذى يقف فى دكانه ليبيع أى شىء ، وجاء طفلٌ صغير وخطف قطعةً من الحلوى وجرى ولا يستطيع التاجر أن يطول الطفل أو أن يقدر على الإمساك به ، هذا خَطْف . أما الذى يغتصب فهو الذى قهر صاحب الشىء على أن يتركه له . أما الاختلاس فهو أن يكون هناك إنسان أمين على مال فيأخذ منه ، أما السرقة فهى أخذ لمال مقوَّم خفية وأن يكون فى حرز مثله ؛ أى يكون فى مكان لا يمكن لغير المالك أن يدخله أو يتصرف فيه إلا بإذنه . أما الذى يترك بابه مفتوحاً أو يترك بضاعته فى الشارع فهو المُقصِّر ، فكما يأمرنا الشرع بألا يسرق أحد أحداً ، كذلك يأمر بعدم الإهمال ، بل لابد للإنسان أن يعقل أشياءه ويتوكل . وسبحانه هو المُشرِّع العَدْل الذى يُقيم اليقظة على الجانبين . حدّد الشّرع السرقة بما قيمته ربع دينار . وربع الدينار فى ذلك الزمن كان يكفى لأن يأكل إنسان هو وعياله ويزيد ، بل إن الدرهم كان يكفى أن يقيم أود أسرة فى ذلك الوقت .

وكيف نقوِّم ربع الدينار فى زماننا ؟. إن كان لا يكفى لمعيشة ، فيجب أن ترفع النصاب إلى ما يُعيش ، ومادام الدينار كان فى ذلك الزمان ذهباً ؛ فربع الدينار ترتفع قيمته . وقديماً كان الجنيه الذهب يساوى سبعة وتسعين قرشاً ونصف القرش . أما الجنيه الذهب حاليا فهو يساوى أكثر من مائتين وسبعين جنيهاً ، وقد يكون هناك إنسان يسرق لأنه محتاج أو جائع ، ولذلك وضع الشرع له قدرا لا يتجاوزه المحتاج لحفظ حياته وحياة من يعول هو الدرهم . وسرقة الدرهم لا حد فيها كما لا إثم فيها ، وذلك إذا استنفذ كل الطرق المشروعة فى الحصول على القوت ، ونعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى الدرهم للرجل وقال :

(اشتر طعاماً لك ولأسرتك) .

وكان الدرهم ـ كما قلنا ـ يكفى فى ذلك الزمن . والدرهم جزء من اثنى عشر جزءا من الدينار ، فربع الدينار ثلاثة دراهم ، والدرهم يساوى فى زمننا هذا أكثر من عشرين جنيها .

والسطحيون يقولون : إن سيدنا عمر ألغى حَدّ السَّرقة فى عام الرَّمادة ؛ ونقول لهم : لا . لم يسقط عمر بن الخطاب الحد ، فالحد باقٍ ولكنه لم يدخل الحادثة التى حصلت فيها يوجب الحد . والحادثة التى حدثت فى عام الرمادة أو عام الجوع هى

وجود الشبهة . وبفطنته كأول أمير للمؤمنين ، لم يدخل الحوادث فيما يوجب الحد . وفى مسألة عبدالرحمن بن حاطب بن أبى بلتعة . عندما سرق غلمانه ، فماذا حدث ؟ قال الغلمان لعمر : كنا جوعى ولم يكن ابن أبى بلتعة يعطينا الطعام . ودرأ سيدنا عمر الحَدَّ بالشُّبهة .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة المتحرك وثمرة حركة المتحرك . ، لكن بعض السطحيين فى الفهم يقولون مثل ما قال المعرّى :

يــد بـخمس مئـين عسجـد وُدِيَـتْ
مــا بالهــا قطعت فى ربــع دينـار
تنــاقضٌ مــا لنــا إلا السكـوت لــه
وأن نعــوذ بمــولانــا من الــنــار

وهنا ردّ عليه العالِم المؤمن فقال :

أنت تعترض لأننا نعطى دية اليَد خمسمائة دينار ، وعندما يسرق إنسان . نقطع يد السارق لأنها أخذت ربع دينار .

وقال العالِم المؤمن :

عِــز الأمــانــة أغــلاهــا وأرخـصـهــا
ذُل الخــيــانــة فــافهــم حكـمـة الـبــارى

ونلاحظ أن التشريعات الجنائية وتشريعات العقوبات ليست تشريعات بشرية ، لكنها تشريعات فى منتهى الدقة . بالله لو أن مُقنّنا يقنن للسارق أو السارقة ، ويُقنّن للزانى والزانية ماذا يكون الموقف ؟

إن الذى يتكلم هو رب العالمين ، فقال هنا : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » . والسرقة عادة ما تكون رغبة فى الحاجة وهى غالبا ما تكون من عمل الرجل . أما فى الزانى والزانية ، فلو أن الرجل لم يُهَيّج ويستثر بجمال امرأة لما فكر فى الزِّنا . إذن فهى صاحبة البا ية . وينص سبحَانه على العقوبة وجاء بالحكمة . وعندما يُشرع للقصاص وهى الحالة التى يغلى فيها دم أقارب القتيل ، فيقول :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌۢ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

ولنر الحَنانَ الموجود فى كلمة « أخيه » . ولا نجد تقنينا يدخل التحنين بين سطوره ، إلا تقنين الرَّب الذى خلق الإنسان وهو أعلم به .

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » . هذا ما انتهى إليه حَد السَّرقة فى تشريعات السماء ، وحتى فى زمن سيدنا موسى كان السَّارق يُستَرَق بسرقته ؛ أى يتحوَّل الحُرّ إلى عَبد نتيجة سرقته . ولذلك نلاحظ ونحن نقرأ سورة سيدنا يوسف :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة يوسف)

و« السقاية » هى الإناء الذى كان يشرب فيه الملك ، وكان اسمها « صواع الملك » ، وأخذوها ليكيلوا بها . وبعد أن جعل السقاية فى رحل أخيه ، ماذا حدث ؟

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢ ﴾

(سورة يوسف)

وهنا قال إخوة يوسف بأنهم لم يأتوا ليفسدوا فى الأرض ، لذلك ترك لهم يوسف الأسلوب فى تحديد الجزاء ، ولم يحاكمهم بشرع الملك :

﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّٰلِمِينَ ۝٧٥ ﴾

(سورة يوسف)

لقد جعلهم يعترفون ، ويحاكمهم حسب شريعتهم لأن شرع الملك أن من يسرق شيئا عليه أن يغرم ضعفى ما أخذ .

وهذا ما يوضح معنى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة يوسف)

أى أنها حيلة ليستبقى يوسف أخاه معه . ولو استعمل قانون مصر فى ذلك الزمن لما أخذ أخاه معه . وهذا كيد لصالح يوسف ؛ لأن « اللام » تفيد الملكية أو النفعية . وأضاف إخوة يوسف قائلين :

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٧ سورة يوسف)

ولماذا قالوا ذلك ؟ أصل هذه المسألة أن يوسف كان يحيا عند عمته . وعندما كبر وأرادوا أن يأخذوه أرادت العمة أن تستبقيه فدست فى متاعه تمثالاً . أو منطقة كانت لها من أبيها إسحاق وادعت أنها فقدت ذلك ؛ ففتشوا الولد فعثروا معه على الشيء الذى ادعت عمته سرقته فاستبقته بشرع بنى إسرائيل . وكان جزاء السرقة فى الشريعة هو الاسترقاق . ونُسِخ هذا الشرع وجاءت آية حد السرقة تأكيداً للنسخ . وإن لم يكن قد نُسِخ فهذه الآية هى بداية للنسخ . « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » .

والسُّنة هى التى تبين لنا كيفية القطع ، وكان القطع لليد اليمنى؛لأنها عادة التى تباشر مثل ذلك العمل . وفى إحدى رحلاتى إلى أمريكا ، حدثنى أخ مسلم ضمن جماعة تحضر إحدى محاضراتى وقال : إن التَّيمُّن يجب أن يكون فى كل شىء ، فلماذا يأكل البعض بيده اليسرى ؟

قلت : إن هذه مسألة تكوينية بدليل أن بعض الناس أجهزتها تختلف ، فليست المسألة ميكانيكية . وأضفت : إن من خيبة بعض الاختراعات البشرية أنها لا تخطىء كالحاسب الآلى . ولو كان ينتقى ويختار لأمكن أن يخطىء ، أما العقل فهو يعرف الانتقاء . وقلت : إننى أطلب من السائل أن يقف . فلما وقف طلبت منه أن يتقدم جهتى فلما تقدم جهتى مَد رجله اليمنى ، فقلت تعليقا على هذا : « إنه تكوين خلقى » . ولذلك فالذى عنده ولد تتأبى عليه يمينه فإياك أن تُرغِمه على ذلك لأن مثل هذه العملية أرادها الخالق لتَشُذّ فى الخلق ، ولتظهر قدرة الخالق .

فلا داعى لقهر الابن الذى تتأبى عليه يَمينه ؛ لأن العلماء قالوا إن مراكز السيطرة ليست فى اليد ولكن فى المخ . وقد أوجد الحق تلك الأمور فى الكون حتى نفهم أن

خالق الكون لم يخلق الكون وتركه بسننه ، لا . إنه يخرق السنن كلما أراد . لكن لو تأبى إنسان على استعمال اليد اليمنى فى الأكل مثلا وهو قادر على ذلك فإنه يكون مخالفا لسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومجافيا للفطرة .

« فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا » وإذا سمعنا كلمة « كسب » فهى تعنى الأخذ لأكثر من رأس المال . والسارق يكسب السيئة لأنه أخذ ما فوق الضرورة . والنكال : العقاب أو هو العبرة المانعة من وقوع الجرم سواءً لمن ارتكب الجريمة وكذلك لمن يراها . والحق يقول عن بعض الأمور :

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٢ سورة النور)

وضرورة الإعلان عن تنفيذ عقوبة الفعل المؤثِّم من أجل الاعتبار والعظة ، فالتشريع ليس من بشر لبشر ، إنما تشريع خالق لمخلوق . والخالق هو الذى صنع الصنعة فلا تتعالم على خالق الصنعة . والشريعة لا تقرر مثل هذا العقاب رغبة فى قطع الأيدى ، بل تريد أن تمنع قطع الأيادى .

وإن ظل التشريع على الورق دون تطبيق فلن يرتدع أحد . والذين قالوا « قطع الأيدى فعل وحشى » ، نقول لهم : إن يداً واحدة قطعت فى السعودية فامتنعت كل سرقة . وإذا كان القتل أنفى للقتل ؛ فالقطع أنفي للقطع ، أما عن مسألة التشويه التى يطنطنون بها فحادثة سيارة واحدة تشوه عدداً من الناس وكذلك حادثة انفجار لأنبوبة « بوتاجاز » تفعل أكثر من ذلك . فلا تنظروا إلى القصاص مفصولا عن السرقة إن انتشرت فى المجتمع . وإبطاء القائمين على الأمر للإجراءات التى يترتب عليها العقوبات يُنسى المجتمع بشاعة الجريمة الأولى ، وعندما يحين وقت محاكمة المُجرم تكون الرحمة موجودة .

لكن إن وُقِّع العقاب سَاعَة الجُرم تنته المسألة . وساعة يسمع اللصوص أننا سنقطع يد السارق ، سيفكر كل منهم قبل أن يسرق ولا يرتكب الجُرم ؛ لأن المُراد من الجزاء العبرة والعِظة ومقصد من مقاصد التربية وتذكرة للإنسان بمطلوبات الله عنده إن أخذته الغفلة فى سياسة الحياة فالجزاء هنا نكالا أى عقابا و« نكولا » وهو

الرجوع عن فعل الذنب أى العبرة المانعة من وقوع الجُرم . فكأن الجزاء كان المقصود منه أن يرى الإنسان من قطعت يده فيمتنع عن التفكير فى مثل ما آلت إليه هذه الحالة .

أو أن يحافظ الذى قُطعت يده على ما بقى من جوارحه الباقية ؛ لأنه قد قُطِعت يمينه وإن عاد قُطِعت يساره ، فإن عاد قُطِعت رجله اليمنى ثم إن عاد قطعت رجله اليسرى ويكون النكال لمنع الرجوع للجريمة ، وهو إما رجوع ممن رأى العقوبة تقع على السارق أو الرجوع من السارق نفسه إن رأى أى جارحة من جوارحه قد نقصت. فيحرص أن تظل الجوارح الباقية له . ويعامل الحق خلقه بسُنة كونية هى : أن من يأخذ غير حقه يُحَرم من حَقه . ومثال ذلك قوم من بنى إسرائيل قال الله حكما فيهم : لقد استحللتم ما حرمته عليكم فلا جزاء لكم إلا أن أضيق عليكم وأحرم عليكم ما أحللت لكم . فقال :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

إذن ليس فى قدرة أحد أن يضحك على الله أو أن يخدع الله أو أن يأخذ ما ليس حقا له . فإن أسرف الإنسان فى تعاطى أشياء حرمها الله عليه فسيأتى وقت يحرمه الله فيه من أشياء حللها له كالذى أسرف فى شُرب الخمر أو فى تناول المواد المخدِّرة التى تغيب عن الوعى ، يبتليه الحق بما يجعله محروماً من مُتع أخرى كانت حلالا . وإن أسرف الإنسان مثلا فى تناول الحلوى . فإن المرض يأتيه ، ويحرم الله عليه أشياء كثيرة .

ولو قاس المسرف على نفسه ما أحله لنفسه بما حرمه الله عليه لوجد الصفقة بالنسبة له خاسرة . فالذى أسرف بغير حق فى أن يأكل مال أحد ، يرى ماله وهو يضيع أمام عينيه . ولنا فى ذلك المثل . كان السادة فى الريف ـ قديما ـ يقومون بتنقية الدقيق إلى درجة عالية حتى يصبح فى تمام النقاء من « الردة » . ويسمون هذا النوع من الدقيق « الدقيق العَلاَمَة » وكانوا يأكلون منه ويتركون البقية من الدقيق مختلطا بالردة ليأكله الخدم أو الفقراء ، فتأتى فترة يُحرم الأطباء عليهم هذا الدقيق الأبيض ، ولا يجد الواحد منهم طعاما إلا الدقيق « السِّن » الذى كان يرفضه قديما فعلينا ـ إذن ـ أن ننظر إليها كقضية سائدة فى الكون كله ، ولنجعل قول الله أمامنا :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فأنت إن أخذت كسب يد واحدة يحرمك الحق من يدٍ لا من كسب . فإن زدت حرمك الله من جارحة أخرى ، وهكذا . وتلك سُنَّة كونية تعدل نظامِ الكون بالنسبة للناس ، وخصوصا من يستبطئون جزاء الآخرة ، ومن يُغْريهم ويَغُرهم ويطمعهم حِلْم الله عليهم .

وأنت إذا ما نظرت وصنعت لنفسك رُقعة جغرافية فى البيئة التى تعيش فيها فى أسرتك ، أو حيك ، أو بلدك أو أمتك ، فأنت تجد قوما قد حرموا بأنفسهم من غير أن يحرم عليهم أحد ، فتجد واحداً مصاباً ـ والعياذ بالله ـ بالبولينا : ولا يقدر أن يأكل قطعة من اللحم ، أو آخر مصابا بمرض السكر ؛ وتراه غير قادر على أن يأكل قطعة من الحلوى ، أو ملعقة من العسل . لأن أحداً لن يستطيع أن يأخذ شيئا بدون علم الله . وصنع الله ذلك لأنه عزيز لا يُغلَب . فإياك أن تظن أن بإمكانك أخذ شيء من وراء شرع الله أو تظن انك خدعت شرع الله ، فهو سبحانه عزيز لا يُغلَب أبداً . ونرى فى حياتنا الذين يأخذون أموالاً بغير حق رشوةً أو سرقةً أو اختلاساً ، نرى مصارف هذه الأشياء أو الرشاوى أو الأموال قد ذهبت وأنفقت فى مهالك ومصائب ؛ إننا نجدها قد أخذت ما أخذوه من حرام ، ومالت وجارت على ما كسبوه من حلال . وأريد من المسرفين على أنفسهم أن يضعوا لأنفسهم كشف حساب ، فيكتبوا فى ناحية القرش الذى كسبوه من حرام ، ويكتبوا فى ناحية أخرى كل قرش كسبوه من حلال . وليشاهد كل مسرف على نفسه فى أكل حقوق الناس المصائب التى سيبتليه الله بها ، ولسوف يجد أنه قد صرف لمواجهة المصائب كل الحرام وبعضا من الحلال . ولذلك قال الأثر الصالح : « من أصاب مالا من نهاوش أذهبه الله فى نهابر »[1] .

وكنت أعرف اثنين من الناس ، ولكل واحد منهما ولد فى التعليم . وكنت أجد أحدهما يعطى ولده خمسة قروش . فيقول الابن لأبيه : « معى مصروف الأمس » .

(١) رواه القضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعا ، وعزاه الديلمى ليحيى بن جابر وليس صحابيا ، والمعنى من أصاب مالا من غير حله أذهبه الله فى مهالك وأمور متبدّدة .

وكان الآخر يعطى ولده عشرة قروش فيقول الابن له : « إنها لا تكفى شيئاً » . وشاء الحق أن يجمعنا نحن الثلاثة فى مكتب يتبع وزارة الرى بالزقازيق ، فلما جئنا لنخرج إذا برئيس كتاب تلك المصلحة يأتى بظرف أصفر كبير به أشياء كثيرة ويناوله لواحد منهما ، فسألته : ما هذا ؟ فقال : بعض من الورق الأبيض وبعض من ورق النشاف وعدد من الأقلام حتى يكتب الأولاد واجبهم المدرسى . فقلت له : هذا سر خيبة أولادك الدراسية وإسرافهم والدروس الخصوصية التى تدفع فيها فوق ما تطيق وسر قول ابنك لك : إن القروش العشرة لا تكفى شيئا . أما الشخص الآخر فابنه يقول له : لا أريد مصروف يد اليوم لأن معى خمسة قروش هى مصروف أمس ولا أريد أن آخذ دروسا خصوصية لأنى أحب الاعتماد على نفسى .

وسبحانه الحق القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . ويقول لنا بلاغا :

قال أبو الجلد : « أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : قل لقومك : ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى وتظهرونها لى ؟ إن كنتم ترون أنى لا أراكم فأنتم مشركون بى ، وإن كنتم ترون أنى أراكم فَلِمَ تجعلوننى أهون الناظرين إليكم »[1] .

إذن قوله الحق : « جزاء بما كسبا نكالا من الله » واضح تماما ، ويردف الحق قوله هذا : « والله عزيز حكيم » . وسبحانه عزيز لا يغلبه أحد ، حتى الذى يسرق ، إنما يسرق الرزق المكتوب له ؛ لأن العلماء اتفقوا على أن الشيء المسروق رزق أيضا لأنه يُنتفَع به . ووالله لو صبر لجاءه وطرق عليه بابه . فإياكم أن تحتالوا على قدر الله ؛ لأنه حكيم فى تقديره .

وكلمة « حكيم » لها فى حياتنا قصة ، كنا ونحن فى مقتبل حياتنا التعليمية نحب الأدب والشعر والشعراء ، وبعد أن قرأنا للمعرى وجدنا عنده بعضا من الشعر يؤول إلى الإلحاد ، فزهدنا فيه وخصوصا عندما قرأنا قوله فى قصيدته :

تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

(١) أورده ابن رجب فى شرحه فى كتاب (جامع العلوم والحكم) .

وأخذنا من ذلك القول أنّه ينكر البعث ؛ فقلنا : يغنينا الله عنه . ولكن صديقنا الشيخ فهمى عبداللطيف ـ رحمه الله ـ رأى المعرى فى الرؤيا وكان مولعا بالمعرى ، فجاء إلى ذات صباح ونحن فى الزقازيق وقال لى : يا شيخ لقد رأيت المعرى الليلة فى الرؤيا وهو غاضب منك أنت لأنك جفوته . فقلت : أنا جفوته لكذا وكذا وأنت تعلم السبب فى ذلك . وقال الشيخ فهمى عبداللطيف : هذا ما حصل .

وقلت لنفسى : يجب أن أعيد حسابى مع المعرى ، وجئنا بدواوينه « سقط الزند » و« لزوم ما لا يلزم » . ووجدنا أن للرجل عُذراً فى أن يعتب علينا ؛ لأن آفة الناس الذين يسجلون خواطر أصحاب الفكر أنهم لا ينظرون إلى تأريخ مقولاتهم ، وقد قال المعرى قوله الذى أنكره عليه وقت أن كان شابا مفتونا بفكره وعندما نضج قال عكسه . وكثير من المفكرين يمرون بذلك ، مثل طه حسين والعقاد ، بدأ كل منهما الحياة بكلام قد يؤول إلى الإلحاد ولكنهما كتبا بعد النضج ما يحمل عطر الإيمان الصحيح ؛ لذلك لا يصح لمن يحكم عليهم أن يأخذهم بأوليات خواطرهم التى بدأوها بالشك حتى يصلوا إلى اليقين . وجلست أبحث فى المعرى الذى قال :

تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

فوجدته هو نفسه الذى قال بعد أن ذهبت عنه المراهقة الفكرية :

زعم المنجم والطبيب كلاهما
لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر
أو صح قولى فالخسار عليكما

كأنه عاد إلى حظيرة الإيمان :

وكذلك قال المعرى :

يد بخمس مئين عسجد وُدِيَتْ
ما بالها قُطِعَتْ فى ربع دينار

وقال بعد ذلك :

تناقض ما لنا إلا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

وقلت للشيخ فهمي عبداللطيف : للمعرى حق فى العتاب وسأحاول أن أعاود قراءة شعره ، والأبيات التى أرى فيها خروجا ساعدلها قليلا . وعندما جئت إلى ذلك البيت . قلت : لو أنه قال ـ وأنا أستأذنه ـ :

لحكمة ما لنا إلا الرضاء بها
وأن نعوذ بمولانا من النار

فَلكل شيء حكمة . وحين نرى طبيباً يمسك طفلا قلبه لا يتحمل المُرقد ـ أى البنج ـ أثناء إجراء عملية جراحية ، فهل يظن ظان أن الطبيب ينتقم من هذا الطفل ؟ طبعا لا ، إذن فلكل شيء حكمة ، ويجب أن ننظر إلى الشيء وأن نربطه بحكمته . والله عزيز أى لا يغلبه أحد ولا يحتال عليه أحد . وهو حكيم فيما يضع من عقوبات للجرائم ؛ لأنه يزن المجتمع نفسه بميزان العدالة . ومن بعد ذلك يفتح الحق سبحانه باب التوبة رحمة لمن يتوب ورحمة للمجتمع ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩ ﴾

والسارق ظالم ، لأنه أخذ حق غيره ، فإن تاب أى ندم على الفعل وعزم على ألا يعود شريطة ألا تكون التوبة بالكلام فقط ، بل يصلح ما أفسده ، هنا تقبل التوبة . ولكن كيف يفعل ذلك ؟

إذا كان الشيء المسروق فى حوزته فعليه أن يرده إلى صاحبه . وإن كان قد تصرف